

الباب الثاني والأربعون: في المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول

الفصل الأول: في المدح والثناء

المدح وصف الممدوح بأخلاق يمدح عليها صاحبها يكون نعتاً حميداً. وهذا يصح من المولى في حق عبده. فقد قال الله تعالى في حق نبيه أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(١) وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ خُلِقَ عَظِيمٌ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾^(٣) إلى آخر الآية فعلى هذا يجوز مدح الإنسان بما فيه من الأخلاق الحميدة. وأما قوله ﷺ: «إذا رأيتم المادحين فاحشوا في وجوههم التراب»، فقد قال العتبي: هو المدح الباطل والكذب. وأما مدح الرجل بما فيه فلا بأس به، وقد مدح أبو طالب والعباس وحسان وكعب وغيرهم رسول الله ﷺ، ولم يبلغنا أنه حثا في وجه مادح تراباً. وقد مدح هو ﷺ المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم. وفي حثو التراب معنيان؛ أحدهما التغليظ في الرد عليه، والثاني كأنه يقال له يكفيك التراب. وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا مدح قال: اللهم أنت اعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، واللهم اجعلني خيراً مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون. ومدح سارية الديلي رسول الله ﷺ وهو سارية الذي أمره عمر رضي الله عنه على السرية، وناداه في خطبته بقوله: يا سارية الجبل، فمن مدحه في رسول الله ﷺ قوله:

فَمَا حَمَلْتُ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ ظَهْرِهَا أَبْرَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ
وهو أصدق بيت قالته العرب، ومن أحسن ما مدحه به حسان رضي الله عنه قوله:

وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطْ عَيْنِي وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءَ
خَلَقْتَ مَبْرَأً مِنْ كُلِّ غَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

ومن أحسن ما مدحه به عبد الله بن ربيعة الأنصاري رضي الله عنه قوله:

لَوْلَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مَبِينَةٌ كَانَتْ بِدِيهْتِهِ تَنْبِيكَ بِالْخَبْرِ

ولما حججت وزرته ﷺ تطفلت على جنبه المعظم وامتدحته بأيات مطوّلة وأنشدتها بين يديه بالحجرة الشريفة، تجاه الصندوق الشريف، وأنا مكشوف الرأس وأبكي من جملتها:

(١) سورة: ص، الآية: ٤٤.

(٢) سورة: القلم، الآية: ٤.

(٣) سورة: المؤمنون، الآيتان: ١ - ٢.

يا سَيِّدَ السَّادَاتِ جِئْتُكَ قَاصِداً
والله يا خَيْرَ الْخَلَائِقِ إِنَّ لِي
وَوَحْثُ جَاهِكَ إِنْسِي بِكَ مَغْرَمٌ
أَنْتَ الَّذِي لَوْلَاكَ مَا خُلِقَ امْرُؤُ
أَنْتَ الَّذِي مَنْ نُورُكَ الْبَدْرُ اكْتَسَى
أَنْتَ الَّذِي لَمَّا رُفِعَتْ إِلَى السَّمَاءِ
أَنْتَ الَّذِي نَادَاكَ رِثْكَ مَرْحَباً
أَنْتَ الَّذِي فِينَا سَأَلْتَ شَفَاعَةً
أَنْتَ الَّذِي لَمَّا تَوَسَّلَ آدَمُ
وَبِكَ الْخَلِيلُ دَعَا فَعَادَتْ نَارُهُ
وَدَعَاكَ أَيُّوبُ لَضَرْ مَسَّهُ
وَبِكَ الْمَسِيحُ أَتَى بِشِيراً مَخْبِيراً
وَكُذَّاكَ مُوسَى لَمْ يَزَلْ تَوَسَّلُ
وَالْأَنْبِيَاءُ وَكُلُّ خَلْقٍ فِي الْوَرَى
لَكَ مَعْجَزَاتٌ أَعْجَزَتْ كُلَّ الْوَرَى
نَطَقَ الذَّرَاعُ بِسْمَةِ لَكَ مَعْلَناً
وَالذَّنْبُ جَاءَكَ وَالْغَزَالَةُ قَدْ أَتَتْ
وَكُذَّا الْوَحُوشُ أَتَتْ إِلَيْكَ وَسَلَّمَتْ
وَدَعَوْتَ أَشْجَاراً أَتَتْكَ مَطْبِعَةً
وَالْمَاءُ فَاضَ بِرَاحَتِكَ وَسَبَّحَتْ
وَعَلَيْكَ ظَلَلَتِ الْغَمَامَةُ فِي الْوَرَى
وَكُذَّاكَ لَا أَثَرَ لِمَشْيِكَ فِي الثَّرَى
وَشَفِيتَ ذَا الْعَاهَاتِ مِنْ أَمْرَاضِهِ
وَرَدَدْتَ عَيْنَ قَتَادَةٍ بَعْدَ الْعَمَى
وَكُذَّا حَيْبُ وَابْنُ عَفْرَا عِنْدَمَا
وَعَلَيْكَ مِنْ رَمَدٍ بِهِ دَاوَيْتَهُ
وَسَأَلْتَ رَبَّنَا فِي ابْنِ جَابِرٍ بَعْدَمَا

أَرْجُو رِضَاكَ وَاحْتَمِي بِجَمَاكَ
قَلْباً مَشُوقاً لَا يَرُومُ سِوَاكَ
وَالله يَعْلَمُ أَنَّنِي أَهْوََاكَ
كُلّاً وَلَا خُلِقَ الْوَرَى لَوْلَاكَ
وَالشَّمْسُ مَشْرِقَةً بِنُورِ بَهَاكَ
بِكَ قَدْ سَمَتْ وَتَزَيَّنَتْ لِسْرَاكَ^(١)
وَلَقَدْ دَعَاكَ لِقَرْبِهِ وَحَبَاكَ
نَادَاكَ رِثْكَ لَمْ تَكُنْ لِسِوَاكَ
مِنْ ذَنْبِهِ بِكَ فَازَ وَهُوَ أَبَاكَ
بَزْدًا وَقَدْ خَمَدَتْ بِنُورِ سِنَاكَ^(٢)
فَأَزِيلُ عَنْهُ الضَّرَّ حِينَ دَعَاكَ
بِصِفَاتِ حُسْنِكَ مَا دِحَا لِعُلَاكَ
بِكَ فِي الْقِيَامَةِ مَرْتَجٍ لِنَدَاكَ
وَالرَّسُلُ وَالْأَمْلَاقُ تَحْتَ لِسَاكَ
وَفَضَائِلُ جَلَّتْ فَلَيْسَ تَحَاكِي
وَالضُّبُّ قَدْ لَبَّاكَ حِينَ أَتَاكَ
بِكَ تَسْتَجِيرُ وَتَحْتَمِي بِحَمَاكَ
وَشَكَا الْبَعِيرُ إِلَيْكَ حِينَ رَاكَ
وَسَعَتْ إِلَيْكَ مَجِيئَةً لِنَدَاكَ
صَمٌّ^(٣) الْحَصَى بِالْفَضْلِ فِي يَمَانَا
وَالْجَذْعُ حَنَّ إِلَى كَرِيمٍ لِقَاكَ
وَالصَّخْرُ قَدْ غَاصَتْ بِهِ قَدَمَاكَ
وَمَلَأَتْ كُلَّ الْأَرْضِ مِنْ جَدْوَاكَ^(٤)
وَابْنُ الْحَصِينِ شَفِيتَهُ بِشَفَاكَ
جَرَحَا شَفِيْتَهُمَا بِلَمْسِ يَدَاكَ
فِي خَيْسِرٍ فَشَفَى بِطَيْبِ لِمَاكَ^(٥)
قَدْ مَاتَ أَحْيَاهُ وَقَدْ أَرْضَاكَ

(١) تزيئت لسراكا: أي بإسراء النبي ﷺ.

(٢) بنور سناكا: نورك.

(٣) صم: التي لا تسمع.

(٤) جدواكا: عطايك.

(٥) اللمي: سمرة بالشفاه.

وَمَسَّنْتَ شَاةَ لَأَمْ مَعْبِدَ بَعْدَمَا
وَدَعَوْتَ عَامَ الْمَحَلِّ رُبُّكَ مَعْلَنًا
وَدَعَوْتَ كُلَّ الْخَلْقِ فَاثْقَادُوا إِلَى
وَحَفِضْتَ دِينَ الْكُفْرِ يَا عَلَمَ الْهَدَى
أَغْدَاكَ عَادُوا فِي الْقَلِيبِ بِجَهْلِهِمْ
فِي يَوْمٍ بَدَرَ قَدْ أَتَيْتَكَ مَلَائِكَ
وَالْفَتْحُ جَاءَكَ يَوْمَ فَتَحِكَ مَكَّةَ
هُودٌ وَيُونُسُ مِنْ بَهَاكَ تَجَمَّلَا
قَدْ قُتَّتْ يَا طَهَ جَمِيعَ الْأَنْبِيَا
وَاللَّهُ يَا يَاسِينَ مِثْلَكَ لَمْ يَكُنْ
عَنْ وَصْفِكَ الشُّعْرَاءُ يَا مَذْذِيرَ
إِنْجِيلِ عِيسَى قَدْ أَتَى بِكَ مَخْبِرًا
مَاذَا يَقُولُ الْمَادِحُونَ وَمَا عَسَى
وَاللَّهُ لَوْ أَنَّ الْبَحَارَ مَدَادُهُمْ
لَمْ تَقْدِرِ الثَّقَلَانِ تَجْمَعُ ذَرَّةَ
لِي فِيكَ قَلْبٌ مَغْرَمٌ يَا سَيِّدِي
فَلِذَا سَكَتُ فَيْكَ صَمْتِي كُلُّهُ
وَإِذَا سَمِعْتُ فَعْنَكَ قَوْلًا طَيِّبًا
يَا مَالِكِي كُنْ شَافِعِي مِنْ فَاغْتِي
يَا أَكْرَمَ الثَّقَلَيْنِ يَا كَنْزَ الْوَرَى
أَنَا طَامِعٌ فِي الْجُودِ مِنْكَ وَلَمْ يَكُنْ
فَعْسَاكَ تَشْفَعُ عِنْدَ يَوْمِ حِسَابِهِ
وَلَأَنْتَ أَكْرَمُ شَافِعٍ وَمَشْفَعٍ
فَاجْعَلْ قِرَائِي شَفَاعَةً لِي فِي غَدٍ
صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ يَا خَيْرَ الْوَرَى
وَعَلَى صَحَابَتِكَ الْكَرَامِ جَمِيعِهِمْ

نَشَفْتَ فِدَرَّتْ مِنْ شِفَا رَقِيَاكَ^(١)
فَانْهَلْ قَطَرَ السَّحْبِ عِنْدَ دَعَاكَ
دَعَاكَ طَوْعًا سَامِعِينَ نِدَاكَ
وَرَفَعْتَ دِينَكَ فَاسْتَقَامَ هُنَاكَ
صَزَعَى وَقَدْ حَرَمُوا الرِّضَا بِجَفَاكَ
مِنْ عِنْدِ رُبِّكَ قَاتَلْتَ أَعْدَاكَ
وَالنَّصْرُ فِي الْأَحْزَابِ قَدْ وَافَاكَ
وَجَمَالُ يُوسُفَ مِنْ ضِيَاءِ سَنَاكَ
نُورًا فَسَبْحَانَ الَّذِي سَوَاكَ
فِي الْعَالَمِينَ وَحَقُّ مَنْ نَبَاكَ
عَجَزُوا وَكَلُّوا عَنْ صِفَاتِ عِلَاكَ
وَأَتَى الْكِتَابُ لَنَا بِمَدْحِ حِلَاكَ
أَنْ يَجْمَعَ الْكُتُبُ مِنْ مَعْنَاكَ
وَالْعُشْبُ أَقْلَامُ جُعِلْنَ لَذَاكَ
أَبْدًا وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ إِدْرَاكَ
وَحِشَاشَةٌ^(٢) مُحْشَوَةٌ بِهَوَاكَ
وَإِذَا نَطَقْتُ فَمَادِحُ عَلَيْكَ
وَإِذَا نَظَرْتُ فَلَا أَرَى إِلَّا كَا
إِنِّي فَقِيرٌ فِي الْوَرَى لِغَنَاكَ
جُذِّ لِي بِجُودِكَ وَارْضِنِي بِرِضَاكَ
لَا بِنِ الْخَطِيبِ مِنَ الْأَنْامِ سَوَاكَ
فَلَقَدْ غَدَاً مَسْتَمْسِكًا بِعُرَاكَ
وَمِنْ التَّجَا لِحَمَّاكَ نَالٌ وَفَاكَ
فَعَسَى أَرَى فِي الْحَشْرِ تَحْتَ لَوَاكَ
مَا حَنْ مَشْتَقٌّ إِلَى مَثْوَاكَ
وَالتَّابِعِينَ وَكُلَّ مَنْ وَالَاكَ

وماذا عسى أن يقول المادحون في وصف من مدح الله تعالى، وأثنى عليه وقد قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، والله لو أن البحار مداد، والأشجار أقلام، وجميع الخلائق كتاب، لما استطاعوا أن يجمعوا التزير^(٣) اليسير من

(١) الرقية: الدعاء.

(٢) الحشاشة: بقية النفس.

(٣) التزير: القليل.

بعض صفاته، ولكلوا عن الأتيان ببعض بعض وصف معجزاته ﷺ. ومدح رجل هشام بن عبد الملك فقال له: يا هذا إنه قد نهي عن مدح الرجل في وجهه. فقال: ما مدحتك ولكن ذكرتك نعم الله عليك لتجدد لها شكراً. فقال له هشام: هذا أحسن من المدح، ووصله وأكرمه. وكتب رجل إلى عبد الله بن يحيى بن خاقان: رأيت نفسي فيما أتعاطى من مدحك كالمخير عن ضوء النهار الباهر، والقمر الزاهر، وأيقنت أنني حيث أنتهى بي القول منسوب إلى العجز مقصر عن الغاية. فانصرفت عن الثناء عليك، إلى الدعاء لك، ووكلت الأخبار عنك إلى علم الناس بك. وقال الحرث بن ربيعة في رجل من آل المهلب:

فتى دهره شطران فيما ينوبه ففي بأسه شطر وفي جوده شطر
فلا من بغاة الخير في عينه قذى ولا من زئير الحرب في أذنه قر^(١)

وقال أعرابي لرجل: لا يذم بلد أنت تأويه^(٢)، ولا يشتكي زمان أنت فيه. وكان الحجاج يستقل زياد بن عمرو العكلي، فلما قدم على عبد الملك بن مروان قال: يا أمير المؤمنين، إن الحجاج سيفك الذي لا ينيو وسهمك الذي لا يطيش، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم، فلم يكن بعد ذلك على قلب الحجاج أخف منه. وقال رجل لآخر: أنت بستان الدنيا، فقال له: وأنت النهر الذي يسقي منه ذلك البستان. وقال رجل لأبي عمرو الزاهد صاحب كتاب الياقوتة في اللغة: أنت والله عين الدنيا. فقال له: وأنت والله نور تلك العين. وقال القاسم بن أمية بن أبي الصلت الثقفي:

قوم إذا نزل الغريب بدارهم تركوه رب صواهل^(٣) وقيان
وإذا دعوته يوم كريهه سدا شعاع الشمس بالفرسان
وقال أوس بن حاتم الطائي:

فإن تنكحي مارية الخير حاتماً فما مثله فينا ولا في الأعاجم
فتى لا يزال الدهر أكبر هممه فكاك أسير، أو معونة غارم
وقال ابن حمدون في آل المهلب:

آل المهلب مغشور أمجاد ورثوا المكارم والوفاء فسادوا
شاد المهلب ما بنى أباه وأتى بئوه ما بئاه فشادوا
وكذلك من طابت مغارس نيتهم وينى له الآباء والأجداد

وكان الفرزدق هجاء لعمر بن هبيرة. فلما سجن ونقب له السجن، وسار هو وبنوه تحت الأرض قال الفرزدق:

ولما رأيت الأرض قد سدا ظهرها ولم يسق إلا بطئها لك مخرجا
دعوت الذي ناداه يونس بعدما نوى^(٤) في ثلاث مظلمات فقرجا

(١) الوقر: ثقل السمع.

(٢) تأويه: تسكنه وترعاه.

(٣) صواهل: الأفراس.

(٤) نوى: رقد.

فقال ابن هبيرة: ما رأيت أشرف من الفرزدق هجاني أميراً، ومدحني أسيراً. وقال سري بن عبد الرحمن الرفاء في خالد بن حاتم:

يا واحد العرب الذي دانت له
إنني لأرجو إن لقيتك سالماً
وقال كعب بن مالك الأنصاري في آل هاشم:

يا آل هاشم إلآه جاكُم
قوم لأصلهم السيادة كلها
وقال الحسين بن دعلب الخزاعي:

ملك الأمور بجوده وحسامه
فأطاع أمر الجود في أمواله
وقال آخر:

يلقى السيوف بصدرة وينحدره^(١)
ويقول للطرف اصطبر لسنى القنا
وإذا تراءى شخص ضيف مقبل
أومى إلى الكوماء هذا طارق
وقال شاعر بني تميم:

إذا لبسوا عمائمهم طووها
يبيع ويشتري لهم سواهم
إذا ما كنت جاز بني تميم
على كرم وإن سفروا أناروا
ولكن بالطعان هم تجاؤ
فأنت لأكرم الثقلين جاؤ
وقالت امرأة من بني نمير وقد حضرته الوفاة وأهلها مجتمعون: من ذا الذي يقول:

لعمري ما رماح بني نمير
بطائشة الصدور ولا القصار^(٢)

قالوا: زياد الأعجم. قالت: أشهدكم أن له الثلث من مالي. وكان مالاً كثيراً. وأثنى رجل على رجل فقال: هو أفصح أهل زمانه إذا حدث، وأحسنهم استماعاً إذا حدث، وأمسكهم عن الملاحاة^(٣) إذا خولف يعطي صديقة النافلة، ولا يسأله الفريضة له نفس عن الفحشاء محصورة على المعالي، مقصورة كالذهب الإبريز الذي يعز كل أوان، والشمس المنيرة التي لا تخفى بكل مكان، هو النجم المضيء للحيران والمنهل العذب للعطشان، وقال الحسن بن هانئ:

(١) النحر: أعلى الصدر.

(٢) القصار: أصل العنق.

(٣) الملاحاة: المراء والجدال الفارغ.

إذا نحنُ أثنيّا عليك بصالِح
وإنْ جَرَّتِ الألفاظُ يوماً بمدحِ
فأنتَ كما نشي وفوقَ الذي تُنشِي
لغيرِكَ إنساناً فأنتَ الذي نَعْنِي
وله في الفضل بن الربيع:

لقد نزلتَ أبا العباسِ منزلةً
وكلتَ بالدهرِ عيناً غيرَ غافلةٍ
وقال زياد الأعجم في محمد بن القاسم الثقفي:
إن المنابرَ أصبحتَ مختالةً
قَادَ الجيوشَ لسبعِ عشرةِ حجةً
ومن بدائع مدائح المتنبي قوله:

ليَتَ المدائحُ تستوفي مناقبَهُ^(١)
خُذْ ما تراهُ ودَعْ شيئاً سمعتَ بهِ
وقد وجدتَ مكانَ القولِ ذا سعةٍ
فما كليبُ وأهلُ الأعصرِ الأولِ
في طلعةِ البدرِ ما يغنيكَ عن زحلِ
فلإن وجدتَ لساناً قائلًا فقلِ

ومدح أبو العتاهية عمرو بن العلاء فأعطاه سبعين ألفاً، وخلع عليه خلعة سنية، حتى أنه لم يستطع أن يقوم فغار الشعراء منه. فجمعهم وقال: يا الله العجب ما أشد حسد بعضكم لبعض، إن أحكمم يأتينا لمدحنا فيتغزل في قصيدته بخمسين بيتاً فما يبلغنا حتى يذهب رونق شعره. وقد تشبب أبو العتاهية بأبيات يسيرة ثم قال:

إنني أمنتُ من الزمانِ وصرفه
لو يستطيع الناسُ من إجلاله
إن المطايا تشكيكُ لأنها
فلإذا وَرَدَنَ بنا وَرَدَنَ خفافاً
لما علقْتُ من الأميرِ حبالا
جعلوا له حرّاً الوجوه نعالا
قطعتُ إليك سباسباً^(٢) ورمالا
وإذا صَدَرْنَ بنا صَدَرْنَ ثقالا

ووفد أبو نواس على الخصب بمصر فأذن له وعند الشعراء، فأنشد الشعراء أشعارهم، فلما فرغوا قال أبو نواس: أنشد أيها الأمير قصيدة هي كعصا موسى تلقف ما صنعوا. قال: أنشد. فأنشده قصيدته التي منها قوله:

إذا لم تَزُرْ أرضَ الخصبِ ركبنا
فأني فتى بعدَ الخصبِ تزورُ
فتى يشتري حسنَ الثناء بماله
ويعلمُ أنَّ الدائراتِ تدورُ
فما فائتُهُ جُودٌ ولا ضلُّ دونه
ولكن يسيرُ الجودُ حيث يسيرُ

فاهتزَّ الخصبُ لها طرباً وأمر له بألف دينار ووصيف ووصيفة.

(١) مطرحاً: منزلاً ومرمى.

(٢) مناقبه: حسناته.

(٣) سباسباً: مسافات بعيدة.

وحكي أن أبا دلف سار يوماً مع أخيه معقل فرأيا امرأتين تتماشيان، فقالت إحداهما للأخرى: هذا أبو دلف. قالت: نعم، الذي يقول فيه الشاعر:

إنما الدنيا أبو دلفٍ بين باديةٍ ومحتضره
فإذا ولى أبو دلفٍ ولت الدنيا على أثره

فبكى أبو دلف حتى جرت دموعه. فقال له معقل: ما لك يا أخي تبكي؟ فقال: لأنني لم أقض حق الذي قال هذا. قال: أو لم تعطه مائة ألف درهم؟ قال: والله ما في نفسي حسرة إلا لكوني لم أعطه مائة ألف دينار. ويقال هذه المدحة فأين المنحة؟ قال بعضهم:

إذا ما المدح صارَ بلا نوالٍ من الممدوح كان هو الهجاء
وامتدح محمد بن سلطان المعروف بابن جيوش محمد بن نصر صاحب حلب فأجازه بألف دينار. ثم مات محمد بن نصر، وقام ولده نصر مقامه، فقصده محمد بن سلطان بقصيدة مدحه بها منها:

تباعذتُ عنكم حرمةً لا زهادةً وسرتُ إليكم حين مسني الضرُّ
فجاد أبو نصرٍ بألفٍ تصرّمت وأني عليمٌ أن سيخلفها نصرُّ

فلما فرغ من إنشادها قال نصر؛ والله لم قال سيضاعفها نصر لضعفتها له وأعطاه ألف دينار في طبق من فضة. ومدح بعض الشعراء، وقيل هو البديع الهمداني إنساناً فقال:

يكادُ يحكيه صوبُ الغيثِ منسكباً لو كان طلقَ المحيا يطرُ الذهبُ
والدهرُ لو لم يَخُنْ والشمسُ لو نطقت والليثُ لو لم يصد والبحرُ لو عذبا

وقال آخر:

أخو كرمٍ يفضي الورى من بساطِهِ إلى روضٍ مجدٍ بالسماحِ مجودٍ
وكم لجباهِ الراغبين لذيهِ من مجالٍ سجودٍ في مجالسِ جودٍ

ويقال: فلان رفيق الجود ودخيله، وزميل الكرم ونزيله، وغرة الدهر وتحجيلة، مواهبه الأنواء، وصدرة الدهناء، عونته موقوف على اللهيء، وغوثه مبذول للضعيف، يطفو جوده على موجوده، وهمته على قدرته، ينابيع الجود تنفجر من أنامله، وريبع السماح يضحك عن فواضله، إن طلبت كريماً في جوده، مث قبل وجوده، أو ماجداً في أخلاقه مث ولم تلاقه، باسل تعوذ الإقدام، حيث تزل الأقدام، وشجاع يرى الإحجام^(١) عاراً لا تمحوه الأيام، له خلق لو مازج البحر لنفى ملوحته وصفى كدورته، خلق كنسيم الأسحار على صفحات الأنهار، وأطيب من زمن الورد في الأيام، وأبهج من نور البدر في الظلام، خلق يجمع الأهواء المتفرقة على محبته، ويؤلف الآراء المشتتة في مودته، هو ملح الأرض إذا فسدت، وعمارة الدنيا إذا خرجت. يحلّ دقائق الإشكال، ويزيل جلائل الأشكال. البيان أصغر صفاته، والبلاغة عنوان خطراته كأنما أوحى التوفيق إلى صدره، وجبس الصواب بين طبعه وفكره، فهو يعبث

(١) الإحجام: النكوص والتردد.

بالكلام ويقول به بألین زمام، حتى كان الألفاظ تتحاسد في التسابق إلى خواطره، والمعاني تتغاير في الإمثال لأوامره، يوجز فلا يخل، ويطنب فلا يمل، كلامه يشتد مرة حتى تقول الصخر أو أيسس، ويلين تارة حتى تقول الماء أو أسلس. فهو إذا أنشأ وشى، وإذا عبّر حبر، وإذا أوجز أعجز، تاهت به الأيام، وباهت في يمينه الأقاليم، له أدب لو تصوّر شخصاً لكان بالقلوب مختصاً قال الشاعر:

له خَلَقَ عَلَى الْأَيَّامِ يَصْفُو كما تَصْفُو عَلَى الزَّمَنِ الْعَقَارُ^(١)
وقال آخر:

لو كان يحوي الروضَ ناضراً خَلِقَهُ ما كان يذبلُ نورُهُ بشتائه
أو قابِلَ الأفلاكِ طالعُ سَعْدِهِ ما صارَ نحسٌ في نجومِ سمائه
وقال آخر:

ووجهك بدرٌ في الغياهب^(٢) مشرقٌ وكُفِّكَ في شهبِ السنين غمامٌ
عجيبٌ لبدرٍ لا يزالُ أمامَهُ سحابٌ ولا يغشاهُ منه ظلامٌ
وأعجبٌ من هذا غمامٌ إذا سطا تلظى مكانَ البرقِ منه حسامٌ
وقال الحسين بن مطير الأسدي:

له يومٌ يؤسِرُ فيه للناسِ أبؤسُ ويومٌ نعيمٍ فيه للناسِ أنعمُ
فيمطرُ يومَ الجودِ من كَفِّهِ الندى ويمطرُ يومَ البؤسِ من كَفِّهِ الدمُ
فلو أن يومَ البؤسِ خلى عقابَهُ على الناسِ لم يصبخَ على الأرضِ مجرمُ
ولو أن يومَ الجودِ خلى يمينه عني المالُ لم يصبخَ على الأرضِ معدمُ
وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

والله ما عَجَبِي لقُدْرِكَ إنه قدَّرَ عَلَى باغِي مَدَاهُ بَعِيدُ
إِلَّا لَكُونِكَ لَسْتَ تَشْكُو وَحْشَةً فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَأَنْتَ وَحِيدُ
ولصفي الدين الحالي:

أئنني فتثني^(٣) صفاتك مظهرأ عيًّا وكم أعيت صفاتك خاطبأ
لو أنني والخلقَ جمعاً ألسن نشي عليك لما قضينا الواجبا
وللشيخ برهان الدين القيراطي:

أوصافكم تجري أحاديثها مجرى النجومِ الزهرِ في الأفقِ

(١) العقار: الخمر العتيقة.

(٢) الغياهب: الظلمات.

(٣) أئنني: أطري. وتثني: تمنعني.

كما أحاديثُ النَّدَى عنكم

وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

رَوَتْ عَنْكَ أَخْبَارُ الْمُعَالِي مُحَاسِنَا
فَوَجَّهَكَ عَنْ بَشِيرٍ وَكَفَّكَ عَنْ عَطَا

وقال غيره:

مَنْ زَادَ بِإِسْكَ لَمْ تَبْرَحْ جَوَارِحُهُ
فَالْعَيْنُ عَنْ قِرَّةٍ وَالْكَفُّ عَنْ صَلَاةٍ

ولأبي فراس بن حمدان:

لَئِنْ خُلِقَ الْأَنْسَامُ لِحُبِّ كَاسٍ
فَلَمْ يُخْلَقْ بَنُو حَمْدَانَ إِلَّا

وقال آخر:

إِنَّ الْهِيَاةَ الَّتِي جَادَ الْكَرَامُ بِهَا
مَا زِلْتَ تَسْبِقُ حَتَّى قَالَ حَاسِدُكُمْ

ولمحمد بن منذر في آل برمك:

أَتَانَا بَنُو الْأَمْلَاكِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ
لَهُمْ رَحْلَةٌ فِي كُلِّ عَامٍ إِلَى النَّدَا
إِذَا نَزَلُوا بِطَحَاءَ^(١) مَكَّةَ أَشْرَقَتْ
فَمَا خُلِقَتْ إِلَّا لَجُودِ أَكْفُهُمْ
إِذَا رَامَ يَحْيَى الْأَمْرَ ذَلَّتْ صَعَابُهُ

ولما عزل إبراهيم بن المنذر عن صدقات البصرة تلقاه مجنون وأنشده:

لَيْتَ شَعْرِي أَيْ قَوْمٍ أَجْدَبُوا
نَظَرَ اللَّهِ لَهُمْ مِنْ يَتَنَّا
يَا أَبَا إِسْحَاقَ سِرِّ فِي دَعَا^(٢)
إِنَّمَا أَنْتَ رَيْسٌ بَاكِرٌ

وقال آخر:

تَسْنُدُهُمَا الرِّكْبَانُ مِنْ طَرَقِ

كَفْتُ بِلِسَانِ الْحَالِ عَنِ أَلْسِنِ الْحَمْدِ
وَخَلَقْتُكَ عَنْ سَهْلٍ وَرَأَيْتُكَ عَنْ سَعْدِ

تُرْوِي أَحَادِيثَ مَا أُولَيْتَ مِنْ مَنْزِلٍ
وَالْقَلْبُ عَنْ جَابِرٍ وَالسَّمْعُ عَنْ حَسَنِ

وَمَزْمَارٍ وَطَبْشُورٍ وَعُودٍ
لِمَجْدٍ أَوْ لِبَاسٍ أَوْ لَجُودٍ

مَطْرُوقَةٌ وَنَدَى كَفَيْتُكَ مَبْتَكِرُ
لَهُ طَرِيقٌ إِلَى الْعِلْيَاءِ مُخْتَصِرُ

فِيَا طَيْبَ أَخْبَارٍ وَأَحْسَنَ مَنْظَرٍ
وَأُخْرَى إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ الْمَنُورِ
يَبْحِي وَيُفَضِّلُ بَنَ يَحْيَى وَجَعْفَرٍ
وَأَقْدَامُهُمْ إِلَّا لِسَعْيٍ مَظْفَرٍ
وَنَاهِيكَ مِنْ رَاغٍ لَهُ وَمُدْبِرٍ

فَأَغِيثُوا بِكَ مِنْ بَعْدِ الْعَجْفِ
وَحَرَمْنَاكَ بِذَنْبٍ قَدْ سَلَفَ
وَامْضِ مَصْحُوباً فَمَا مِنْكَ خَلْفَ
حَيْثَمَا صَرَفَهُ اللَّهُ أَنْصَرَفَ

(١) بطحاء: مسيل مكة وواديها.

(٢) دعة: هناة.

قوم لقييل اقعدوا يا آل عباس
إلى السماء فأنتم سادة الناس

لو كان يعقد فوق الشمس من كرم
ثم ارتقوا في شعاع الشمس وارتفعوا
وللحسن بن مطير الأسدي في المهدي:

ما كان في الناس إلا أنتَ معبودُ
لا بل يمينك منها صورُ الجودِ
في السود طراً إذنٌ لا بيضتِ السودُ

لو يعبدُ الناسُ يا مهدي أفضلاًهم
أضحّت يمينك من جودِ مصوِّرةٍ
لو أن من نوره مثقالَ خردلةٍ

وقال آخر:

وبررتني حتى رأيتك والدا
ما كنتُ إلا راعياً لك ساجداً

أوليتني نعماً وفضلاً زائداً
أقسمتُ لو جاز السجودُ لمنعم

وقال آخر:

وحظك في الدنيا جزيلٌ موقرُ
رعى الله كفاً فيه بحرٌ وأنهرُ
فلا زالتِ الحسادُ تغبي^(١) وتصغرُ
لأنني فقيرٌ والفقيرُ مقصرُ

ثناؤك في الدنيا من المسك أعطرُ
وكفك بحرٌ والأناملُ أنهرُ
أعيذك بالرحمن من كلِّ حاسدٍ
لساني قصيرٌ في مديحك سيدي

الفصل الثاني: في شكر النعمة

أما الشكر الواجب على جميع الخلاق فشكر القلب، وهو أن يعلم العبد أن النعمة من الله عز وجل، وأن لا نعمة على الخلق من أهل السماوات والأرض إلا وبدايتها من الله تعالى حتى يكون الشكر لله عن نفسك وعن غيرك. والدليل على أن الشكر محله القلب وهو المعرفة قوله تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾^(٢) أي أيقنوا أنها من الله. وقيل: الشكر معرفة العجز عن الشكر. وقد روي أن داود عليه السلام قال: إلهي كيف أشكرك، وشكري لك نعمة من عندك. فأوحى الله تعالى إليه: الآن قد شكرتني. وفي هذا يقال: الشكر على الشكر أتم الشكر. ولمحمود الوراق:

عليّ له في مثلها يجبُ الشكرُ
وإن طالتِ الأيامُ وأتّصلَ العمرُ
وإن مسَّ بالضرَّاءُ أعقبها الأجرُ
تضيّقُ بها الأوهامُ والسرُّ والجهرُ

إذا كان شكري نعمة الله نعمة
فكيف بلوغُ الشكرِ إلا بفضلِهِ
إذا مسَّ بالسراءِ^(٣) عمَّ سرورُها
فما منهما إلا له فيه نعمة

وفي مناجاة وفعلت موسى عليه السلام: إلهي خلقت آدم بيدك، وفعلت فكيف أشكرك؟ فقال: اعلم أن ذلك

(١) تغبي: تظهر غيبة.

(٢) سورة: النحل، الآية: ٥٣.

(٣) السراء: الخير والسرور.

مني فكانت معرفته بذلك شكره لي. وأما شكر اللسان فقد قال الله تعالى فيه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(١) ويروى عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بالنعمة شكر». وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: تذكروا النعم فإن ذكرها شكر. وأما الشكر الذي في الجوارح. فقد قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾^(٢) الآية فجعل العمل شكراً.

وروي أن النبي ﷺ قام حتى تورمت قدماه، فقيل له: يا رسول الله ﷺ، أتفعل هذا بنفسك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً لله شكوراً! وقال أبو هارون: دخلت على أبي حازم فقلت له: يرحمك الله، ما شكر العينين؟ قال: إذا رأيت بهما خيراً ذكرته، وإذا رأيت بهما شراً سترته. قلت: فما شكر الأذنين؟ قال: إذا سمعت بهما خيراً حفظته، وإذا سمعت بهما شراً نسيتته. وفي حكمة إدريس عليه الصلاة والسلام: لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه بمثل الإنعام على خلقه ليكون صانعاً إلى الخلق، مثل ما صنع الخالق إليه، فإذا أردت أن تحرس دوام النعمة من الله تعالى عليك فأدم مواساة الفقراء. وقد وعد الله تعالى عباده بالزيادة على الشكر. فقال تعالى: ﴿لَنُشْكِرَنَّكُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٣) وقد جعل لعباده علامة يعرف بها الشاكر، فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا أنه لم يشكر، فإذا رأينا الغني يشكر الله تعالى بلسانه وماله في نقصان، علمنا أنه قد أخل بالشكر، إماماً إنه لا يزكي ماله، أو يزكيه لغير أهله، أو يؤخره عن وقته، أو يمنع حقاً واجباً عليه من كسوة عريان، أو إطعام جائع أو شبه ذلك فيدخل في قول النبي ﷺ «لو صدق السائل ما أفلح من رده». قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَتْ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ﴾^(٤) وإذا غيروا ما بهم من الطاعات غيّر الله ما بهم من الإحسان. وقال بعض الحكماء: مَنْ أعطى أربعاً، لم يمنع من أربع؛ مَنْ أعطى الشكر لا يمنع المزيد. وَمَنْ أعطى التوبة لا يمنع القبول. وَمَنْ أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة. وَمَنْ أعطى المشورة لم يمنع الصواب. وقال المغيرة بن شعبة: اشكُرْ مَنْ أنعم عليك، وأنعمْ على مَنْ شكرك فإنه لا بقاء للنعم إذا كفرت، ولا زوال لها إذا شكرت. وكان الحسن يقول: ابن آدم متى تنفك من شكر النعمة وأنت مرتتهن بها. كلما شكرت نعمة تجدد لك بالشكر أعظم منها عليك فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة إلا إلى ما هو أعظم منها. وروي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دعي إلى أقوام ليأخذهم على ريبة فافتروا قبل أن يأخذهم عثمان، فأعتق رقبة شكراً لله تعالى إذ لم يجز على يديه فضيحة مسلم.

ويروى أن نملة قالت لسليمان بن داود عليهما السلام: يا نبي الله أنا على قدرتي أشكر الله منك. وكان راكباً على فرس ذلول^(٥) فخر ساجداً لله تعالى، ثم قالت: لولا أنني أبجل لك لسألتك أن تتزع مني ما أعطيتني. وقال صدقة بن يسار: بينما داود عليه السلام في محرابه إذا مرت به دودة فتفكر في خلقها، وقال: ما يعبا الله بخلق هذه، فأنطقها الله تعالى له، فقالت: يا داود تعجبك نفسك وأنا على قدر ما آتاني الله تعالى أذكرك الله وأشكرك له منك على ما آتاك. وقال

(١) سورة: الضحى، الآية: ١١.

(٢) سورة: سبأ، الآية: ١٣.

(٣) سورة: إبراهيم، الآية: ٧.

(٤) سورة: الرعد، الآية: ١١.

(٥) فرس ذلول: فرس سهل القيادة.

علي رضي الله عنه: احذروا نفار النعم فما كل شارد^(١) مردود. وعنه عليه السلام: «إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا اتصالها بقلّة الشكر». وقيل: إذا قصرت يداك على المكافأة فليطل لسانك بالشكر. وقال حكيم: الشعر ثلاث منازل؛ ضمير القلب، ونشر اللسان، ومكافأة اليد. قال الشاعر:

أفادَتْكُمْ النعماءُ مني ثلاثة يدي ولساني والضميرُ المحجبا

وقال ابن عائشة: كان يقال ما أنعم الله على عبد نعمة فظلم بها إلا أن كان حقاً على الله تعالى أن يزيلها عنه. وأنشد أبو العباس بن عمارة في المعنى:

أعارك ماله لتقوم فيه بواجبه وتقضي بعض حقّه
فلم تقض لطاقته ولكن قويت على معاصيه برزقه

وقال آخر:

ولو أن لي في كل منبت شعرة لساناً يطيل الشكر كنت مقصرا

وقال محمد بن حبيب الراوية: إذا قل الشكر خسر المنّ. وروي: إذا جحدت الصنيعة خسر الامتنان. وسئل بعض الحكماء: ما أضيع الأشياء؟ قال: مطر الجود في أرض سبخة لا يجف ثراها، ولا ينبت مرعاها، وسراج يوقد في الشمس، وجارية حسناء تزف إلى أعمى، وصنيعة تسدى إلى من لا يشكرها. وقال عبد الأعلى بن حماد: دخلت على المتوكل فقال: يا أبا يحيى قد هممنا أن نصلك بخير فتدافعت الأمور. فقلت: يا أمير المؤمنين بلغني عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: من لم يشكر الهمة لم يشكر النعمة. وأنشدته:

لأشكرنّ لك معروفاً هممت به فإن همتك بالمعروف معروف
ولا الوؤك إن لم يمضه قدر فالشرُّ بالقدر المحتوم مصروف

وقال أبو فراس بن حمدان:

وما نعمة مكفورة قد صنعتها إلى غير ذي شكر تمنعني أخرى
سأتي جميلاً ما حييت فلأنني إذا لم أفد شكراً أفدت به أجراً

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من امتطى الشكر بلغ به المزيد. وقيل: من جعل الحمد خاتمة النعمة جعله الله فاتحة للمزيد. وقال ابن السماك: النعمة من الله تعالى على عبده مجهولة. فإذا فقدت عرفت. وقيل: من لم يشكر على النعمة فقد استدعى زوالها. وكان يقال: إذا كانت النعمة وسيمة فاجعل الشكر لها تميمة^(٢). وقال حكيم: لا تصطنعوا ثلاثة، اللثيم فإنه بمنزلة الأرض السبخة^(٣)، والفاحش فإنه يرى أن الذي صنعت له إنما هو لمخافة فحشه، والأحمق فإنه لا يعرف قدر ما أسديت إليه. وإذا اصطنعت الكريم فازرع المعروف واحصد الشكر. ودخل أبو نخيلة على السفاح لينشده، فقال: ما عسيت أن تقول بعد قولك لمسلمة:

(١) شارد: تائه.

(٢) تميمة: رقة وجرز.

(٣) الأرض السبخة: المالحة لا تصلح لزراع.

أمسلمةُ يا فخر كلِّ خليفةٍ ويا فارسَ الدنيا ويا جبلَ الأرضِ
شكرُكَ إنَّ الشكرَ ذِئْبٌ على الفتى وما كلُّ مَنْ أوليتهُ نعمةً يقضي
وأحييت لي ذكري وما كان خاملاً ولكنَّ بعضَ الذكرِ أنبأ من بعضِ

وسمعه الرشيد، فقال: هكذا يكون شعر الإشراف؛ مدح صاحبه ولم يضع نفسه. وعن نصر بن سيار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أنعم على رجل نعمة فلم يشكر له فدعا عليه استجيب له». ثم قال نصر: اللهم إني أنعمت على بني سام فلم يشكروا اللهم اقتلهم، فقتلوا كلهم. وعن علي بن الحسين رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن ليشبع من الطعام فيحمد الله تعالى فيعطيه من الأجر ما يعطي الصائم القائم، إن الله شاكر يحب الشاكرين». وعن محمد بن علي: ما أنعم الله على عبد نعمة، فعلم أنها من الله، إلا كتب الله له شكرها قبل أن يحمد عليها. ولا أذنَّب عبد ذنباً فعلم أن الله قد أطلع عليه، إن شاء غفر له، وإن شاء أخذَه قبل أن يستغفره، إلا غفر الله له قبل أن يستغفره. وأولى رجل رجلًا إعرابياً خيراً فقال: لا أهلك الله ببلاء يعجز عنه صبرك. وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك، وأنشد بعضهم وأجاد:

سأشكُرُ لا أني أجازيك منعماً بشكري ولكنَّ كي يزدادَ لك الشكرُ
وأذكر أياماً لديَّ اصطنعتها^(١) وآخر ما يبقى على الشاكرِ الذكرُ

وقال آخر:

أوليتني نعماً أبوخُ بشكرها وكفيتني كلَّ الأمورِ بأسرها
فلاشكرنَّك ما حبيت وإن أمت فلتشكرنَّك أعظمي في قبرها

وقال آخر:

أي ربِّ قد أحسنتَ عوداً وبداءةً إليّ فلم ينهضْ بإحسانِكَ الشكرُ
فمَنْ كانَ ذا عذرٍ لديك وحجوةٍ فعذري إقرارِي بأنَّ ليسَ لي عذرُ

وقال محمود الوراق:

إلهي لك الحمدُ الذي أنتَ أهلكهُ على نعمٍ ما كنتُ قطُّ لها أهلاً
إن ازددتُ تقصيراً تزدني تفضلاً كأني بالتقصيرِ استوجبُ الفضلاً

وقد أحسن نصيب في وصف الثناء والشكر بقوله:

فعاَجُوا وأثنوا بالذي أنتَ أهلكهُ ولو سكتوا أثنتَ عليكَ الحقائقُ

وقال رجل من غطفان:

الشكرُ أفضلُ ما حاولتُ ملتماً به الزيادةَ عندَ الله والناسِ

قيل: أشكر المنعم عليك، وأنعم على الشاكر لك تستوجب من ربك الزيادة ومن أخيك المناصحة.

(١) اصطنعتها: أنعمت فيها عليّ.

الفصل الثالث: في المكافأة

قال رسول الله ﷺ: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تقدرُوا فادعوا له». ولما قدم وفد النجاشي على رسول الله ﷺ قام يخدمهم بنفسه. فقيل له: يا رسول الله، لو تركتنا كفيناك. فقال: كانوا لأصحابي مكرمين. وقيل أتى رجل من الأنصار إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:

أذكر صنيعي إذا فاجأك^(١) ذو سفه يوم السقيفة والصديق مشغول

فقال عمر بأعلى صوته: ادن مني فدنا منه، فأخذ بذراعه حتى استشرفه الناس وقال: ألا إن هذا ردّ عني سفيهاً من قومه يوم السقيفة. ثم حمّله على نجيب وزاد في عطائه وولاه صدقة قومه وقرأ: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾^(٢). وقال رجل لسعيد بن العاص وهو أمير الكوفة: يدي عندك بيضاء. قال: وما هي؟ قال: كبت بك فرسك فتقدمت إليك قبل غلمانك فأخذت بعضدك وأركبتك وأسقيتك ماء. قال: فأين كنت إلى الآن؟ قال: حجبت عن الوصول إليك. قال: قد أمرنا لك بمائتي ألف درهم وبما يملكه الحاجب إذا حجبك عنا.

وقال: قطري بن الفجاءة الخارجي أسره الحجاج ثم منّ عليه فأطلقه، فقيل له: عاود قتال عدوّ الله. فقال: هيهات شديداً مطلقها وأرق رقة معتقها. ثم قال:

أقاتل الحجاج عن سلطانِهِ بيدٍ تقرُّ بأنها مولائُهُ
ماذا أقولُ إذا وقفتُ إزاءَهُ في الصفِّ واحتجّت له فعلائُهُ
أقولُ جارَ عليٍّ لا إنسي إذا لأحقّ من جارت عليه ولائُهُ
وتحدّث الأقوام أن صنائعاً عرست لديّ فحفظت نخلائُهُ^(٣)

واجتاز الشافعي رحمه الله تعالى بمصر في سوق الحدادين فسقط سوطه، فقام إنسان فأخذه ومسحه وناوله إياه. فقال لغلامه: كم معك؟ قال: عشرة دنائير. قال: ادفعها إليه، واعتذر له. واستنشد عبد الملك عامر الشعبي فأنشده لغير ما شاعر، حتى أنشد لحسان:

من سرّه شرفَ الحياة فلم يزل في عصبَةٍ من صالحِي الأنصارِ
البائعين نفوسَهُم لنبِيهِم بالمشرفي^(٤) وبالقنا الخطارِ
الناظرين بأعينٍ محرّرة كالجمرِ غيرِ كليلِ الأبصارِ

فقام أنصاري فقال: يا أمير المؤمنين استوجب عامر الصلة، عليّ له ستون من الإبل كما أعطينا حسان يوم قالها. فقال عبد الملك: وله عندي ستون ألفاً، وستون من الإبل. وعن عليّ كرم الله وجهه: أحسنوا في عقب غيركم تحفظوا في عقبكم. وقال المدائني: رأيت رجلاً يطوف بين الصفا والمروة على بغلة، ثم رأته ماشياً في سفر فسألته

(١) فاجأك: فاجأك سفيه.

(٢) سورة: الرحمن، الآية: ٦٠.

(٣) نخلاته: صارت كالحنظل المر.

(٤) المشرفي: السيف.

عن ذلك فقال: ركبت حيث يمشي الناس فكان حقاً على الله أن يرجلني^(١) حيث يركب الناس.

ومما جاء في المكافأة: ما حكى عن الحسن بن سهل قال: كنت يوماً عند يحيى بن خالد البرمكي وقد خلا في مجلسه لأحكام أمر من أمور الرشيد. فبينما نحن جلوس إذ دخل عليه جماعة من أصحاب الحوائج فقضاها لهم، ثم توجهوا لشأنهم فكان آخرهم قياماً أحمد بن أبي خالد الأحول. فنظر يحيى إليه والتفت إلى الفضل ابنه وقال: يا بني، إن لأبيك مع أبي هذا الفتى حديثاً فإذا فرغت من شغلي هذا فذكرني أحدثك به، فلما فرغ من شغله وطعم، قال له ابنه الفضل: أعزك الله يا أبي أمرتني أن أذكرك حديث أبي خالد الأحول. قال: نعم يا بني، لما قدم أبوك من العراق أيام المهدي كان فقيراً لا يملك شيئاً، فاشتد بي الأمر إلى أن قال لي مَنْ في منزلي إننا قد كتمنا حالنا وزاد ضررنا ولنا اليوم ثلاثة أيام ما عندنا شيء نتقات به. قال: فبكيت يا بني لذلك بكاء شديداً، وبقيت ولهان حيران مطرقاً مفكراً، ثم تذكرت منديلاً كان عندي، فقلت لهم: ما حال المنديل؟ فقالوا: هو باق عندنا. فقلت: ادفعوه إليّ. فأخذته ودفعته إلى بعض أصحابي وقلت له: به بما تيسر فباعه بسبعة عشر درهماً دفعتهما إلى أهلي، وقلت: انفقوها إلى أن يرزق الله غيرها. ثم بكرت من الغد إلى باب أبي خالد وهو يومئذ وزير المهدي، فإذا الناس وقوف على داره ينتظرون خروجه، فخرج عليهم راكباً، فلما رأي سلم عليّ، وقال: كيف حالك؟ فقلت: يا أبا خالد ما حال رجل يبيع من منزله بالأمس منديلاً بسبعة عشر درهماً. فنظر إليّ نظراً شديداً وما أجابني جواباً؛ فرجعت إلى أهلي كسير القلب وأخبرتهم بما اتفق لي مع أبي خالد. فقالوا: بشس والله ما فعلت توجهت إلى رجل كان يرتضيك لأمر جليل، فكشفت له سرّك وأطلعت على مكنون أمرك فأزريت عنده بنفسك، وصغرت عنده منزلتك، بعد أن كنت عنده جليلاً فما يراك بعد اليوم إلا بهذه العين. فقلت: قد قضى الأمر الآن بما لا يمكن استدراكه. فلما كان من الغد بكرت إلى باب الخليفة، فلما بلغت الباب استقبلني رجل فقال لي: قد ذكرت الساعة بباب أمير المؤمنين. فلم ألتفت لقوله. فاستقبلني آخر فقال لي كمقالة الأول، ثم استقبلني حاجب أبي خالد فقال لي: أين تكون؟ قد أمرني أبو خالد بإجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين. فجلست حتى خرج. فلما رأي دعاني وأمر لي بمركوب. فركبت وسرت معه إلى منزله. فلما نزل قال: عليّ بفلان وفلان الحناطين^(٢)، فأحضروا فقال لهما: ألم تشتريا مني غلات السواد بثمانية عشر ألف درهم؟ قالوا: نعم، قال: ألم أشرط عليكم شركة رجل معكما؟ قالوا: بلى، قال: هو الرجل الذي اشترطت شركته لكما. ثم قال لي: قم معهما. فلما خرجنا قال لي: أدخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك في أمر يكون له فيه الربح الهنيء. فدخلنا مسجداً فقالا لي: إنك تحتاج في هذا الأمر إلى وكلاء، وأمناء وكيالين وأعوان ومؤون لم تقدر منها على شيء، فهل لك أن تبيعنا شركتك بمال نعجله لك فتنتفع به، ويسقط عنك التعب والكلف، فقلت لهما: وكم تبدلان لي؟ فقالا: مائة ألف درهم. فقلت: لا أفعل. فما زالا يزيداني، وأنا لا أرضى إلى أن قالوا لي: ثلثمائة ألف درهم ولا زيادة عندنا على هذا. فقلت حتى أشاور أبا خالد قالوا: ذلك لك. فرجعت إليه وأخبرته فدعا بهما وقال لهما: هل وافقتهما على ما ذكر؟ قالوا: نعم. قال: اذهبا فاقبضاه المال الساعة. ثم قال لي: أصلح أمرك وتهياً فقد قلدتك العمل. فأصلحت شأني وقلدني ما وعدني به، فما زلت في زيادة حتى صار أمري إلى ما صار. ثم قال لولده الفضل: يا بني فما تقول في ابن من فعل بأبيك هذا الفعل، وما جزاؤه؟ قال: حق لعمري وجب عليك له. فقال والله يا ولدي

(١) يرجلني: ينزع مطيتي وأمضي على قدمي.

(٢) الحناط: المشتغل بالحنطة.

ما أجد له مكافأة غير أنني أعزل نفسي وأوليه. ففعل ذلك رضي الله عنه وهكذا تكون المكافأة.

ومن ذلك ما حكى عن العباس صاحب شرطة المأمون، قال: دخلت يوماً مجلس أمير المؤمنين. وكان بين يديه رجل مكبل بالحديد فلما رأيته قال لي: عباس. قلت لبيك يا أمير المؤمنين قال: خذ هذا إليك فاستوثق منه، واحتفظ به وبكره به إليّ في غد، واحترز^(١) عليه كل الاحتراز، قال العباس: فدعوت جماعة فحملوه، ولم يقدر أن يتحرك. فقلت في نفسي: مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي. فأمرتهم فتركوه في مجلس لي في داري. ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله، ومن أين هو؟ فقال: أنا من دمشق. فقلت: جزى الله دمشق وأهلها خيراً، فمن أنت من أهلها؟ قال: وعمن تسأل؟ قلت: أتعرف فلاناً؟ قال: ومن أين تعرف هذا الرجل؟ فقلت: وقع لي معه قضية. فقال ما كنت بالذي أعرفك بخبره حتى تعرفني قضيتك معه. فقلت: ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق، فبغى أهلها وخرجوا علينا حتى أن الوالي تدلى في زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه، وهربت في جملة القوم، فبينما أنا هارب في بعض الدروب وإذا بجماعة يعدون خلفي، فما زلت أعدو أمامهم حتى فهمهم، فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك وهو جالس على باب داره، فقلت: أغثني أغاثك الله. قال: لا بأس عليك ادخل الدار فدخلت، فقالت زوجته: أدخل تلك المقصورة فدخلتها، ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون: هو والله عندك، فقال: دونكم الدار ففتشوها، ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامراته فيها. فقالوا: هو ههنا. فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة، وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاي من شدة الخوف. فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك. فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل فقال: لا تخف قد صرف الله عنك شرهم. وصرت إلى الأمن والدعة^(٢) إن شاء الله تعالى. فقلت له: جزاك الله خيراً، فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها، وأفرد لي مكاناً في داره، ولم يحوجني إلى شيء ولم يفتر عن تفقد أحوالي. فأقمت عنده أربعة أشهر في أرغد عيش وأهته إلى أن سكنت الفتنة، وهدأت، وزال أثرها فقلت له: أتأذن لي في الخروج حتى أتفقد حال غلماني، فلعلي أقف منهم على خبر. فأخذ عليّ المواثيق بالرجوع إليه. فخرجت وطلبت غلماني فلم أر لهم أثراً، فرجعت إليه وأعلمته الخبر وهو مع هذا كله لا يعرفني، ولا يسألني، ولا يعرف اسمي ولا يخاطبني إلا بالكنية. فقال: علام تعزم؟ فقلت: عزمت على التوجه إلى بغداد. فقال: القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج، وها أنا ذا قد أعلمتك، فقلت له: إنك تفضلت عليّ هذه المدة ولك عليّ عهد الله أنني لا أنسى لك هذا الفضل، ولأوفيتك مهما استطعت. قال: فدعا غلاماً له أسود وقال له: أسرج الفرس الفلاني، ثم جهّز آلة السفر فقلت في نفسي: أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة أو ناحية من النواحي، فأقاموا يومهم ذلك في كد وتعب، فلما كان يوم خروج القافلة جاءني السحر وقال لي: يا فلان، قم فإن القافلة تخرج الساعة، وأكره أن تنفرد عنها، فقلت في نفسي: كيف أصنع وليس معي ما أتزود به ولا ما أكرى^(٣) به مركوباً، ثم قمت فإذا هو وامراته يحملان بقجة من أفخر الملابس، وخفين جديدين، وآلة السفر ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي، ثم قدّم بغلاً فحمل عليه صندوقين وفوقهما فرش ودفع إليّ نسخة ما في الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم، وقدم

(١) احترز: احتط في حفظه.

(٢) الدعة: الهناء والأمن.

(٣) أكرى: استأجر.

إليّ الفرس الذي كان جهزه، وقال اركب، وهذا الغلام الأسود يخدمك، ويسوس مركوبك. وأقبل هو وامرأته يعتذران إليّ من التقصير في أمري وركب معي يشيعني، وانصرفوا إلى بغداد وأنا أتوقع خبره لأفي بعهدي له في مجازاته ومكافأته واشتغلت مع أمير المؤمنين فلم أنفرغ أن أكشف خبره وأنا أسأل عنه.

فلما سمع الرجل الحديث قال: لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء له، ومكافأته على فعله ومجازاته على صنيعه، بلا كلفة عليك، ولا مؤنة تلزملك. فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا ذلك الرجل، وإنما الضرّ الذي أنا فيه غير عليك حالي، وما كنت تعرفه عني، ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته، فما تماكنت أن قمت وقبلت رأسه، ثم قلت له: فما الذي أشارك إلى ما أرى؟ فقال: هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في أيامك فنسبت إليّ وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد وأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت وقيدت، وبعث بي إلى أمير المؤمنين وأمري عنده عظيم وخطبي لديه جسيم، وهو قاتلي لا محالة وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية، وقد تبعتني من غلmani من ينصرف إلى أهلي بخبري، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره لي حتى أوصيه بما أريد، فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حدّ المكافأة، وقمت لي بوفاء عهدك.

قال العباس: قلت يصنع الله خيراً، ثم أحضر حداداً في الليل فكّ قيوده، وأزال ما كان فيه من الأنكال^(١)، وأدخله حمام داره وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ثم ستر من أحضر إليه غلامه. فلما رآه جعل يبكي ويوصيه، فاستدعى العباس نائبه وقال: عليّ بالفرس الفلاني، والفرس الفلاني. والبغل الفلاني والبغلة الفلانية. حتى عدّ عشرة، ثم عشرة من الصناديق من الكسوة كذا وكذا ومن الطعام كذا وكذا. قال ذلك الرجل: وأحضر لي بدرة عشرة آلاف درهم وكيساً فيه خمسة آلاف دينار وقال لنائبه في الشرطة: خذ هذا الرجل وشيعه إلى حدّ الأنبار، فقلت له: إنّ ذنبي عند أمير المؤمنين عظيم، وخطبي جسيم، وإن أنت احتججت بأنّي هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كلّ من على بابهِ فأردّ وأقتل، فقال لي: انج بنفسك ودعني أدبر أمري، فقلت: والله ما أبرح بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلى حضوري حضرت. فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على ما يقول فليكن في موضع كذا، فإن أنا سلمت في غداة غد أعلمته، وإن أنا قتلت فقد وقته بنفسي كما وقاني بنفسه. وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم وتجتهد في إخراجه من بغداد.

قال الرجل: فأخذني صاحب الشرطة وصيرني في مكان أثق به، وتفرّغ العباس لنفسه وتحنط وجهه له كفناً، قال العباس: فلم أفرغ من صلاة الصبح، إلا ورسل المأمون في طلبي يقولون: يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم. قال: فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين فإذا هو جالس وعليه ثيابه، وهو ينتظرنا فقال: أين الرجل؟ فسكت. فقال: ويحك أين الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع مني، فقال: لله عليّ عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك. فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما هرب، ولكن اسمع حديثي وحديثه ثم شأنك ما تريد أن تفعله في أمري. قال: قل. فقلت: يا أمير المؤمنين كان من حديثي معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أنني أريد أن أفي له وأكافئه على ما فعله معي، وقلت أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين: إما أن يصفح عني فأكون قد

(١) الأنكال: القيود والأغلال.

وفيت وكافأت، وإما أن يقتلني فأقيه بنفسي وقد تحنطت، وها كفني يا أمير المؤمنين.

فلما سمع المأمون الحديث قال: ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيراً. إنه فعل بك ما فعل من غير معرفا وتكافئه بعد المعرفة، والعهد بهذا لا غير، هلاً عرفتني خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر في وفائك له. فقلت: يا أمير المؤمنين، إنه ههنا قد حلف أن لا يبرح حتى يعرف سلامتي فإن احتجت إلى حضوره حضر. فقال المأمون: وهذا مئة^(١) أعظم من الأولى اذهب الآن إليه فطيّب نفسه، وسكّن روعه، واتّني به حتى أتولى مكافأته. قال العباس: فأتيته إليه وقلت له: ليزل خوفك. إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت فقال: الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء سواه. ثم قام فصلى ركعتين ثم ركب وجثنا، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه وحدّثه حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه، وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفى، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها، وعشرة أبغال بالآنها، وعشر بدر، وعشرة آلاف دينار، وعشرة ممالك بدوابهم. وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به، وإطلاق خراجها، وأمره بمكاتبتها بأحوال دمشق. فصارت كتبه تصل إلى المأمون. وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لي يا عباس: هذا كتاب صديقك. والله تعالى أعلم.

ومن عجائب هذا الأسلوب وغرائبه: ما أورده محمد بن القاسم الأنباري رحمه الله تعالى: أن سواراً صاحب رجة سوار وهو من المشهورين قال: انصرفت يوماً من دار الخليفة المهدي، لما دخلت منزلي دعوت بالطعام فلم تقبله نفسي فأمرت به فرفع. ثم دعوت جارية كنت أحبها وأحب حديثها وأشتغل بها فلم تطب نفسي، فدخل وقت القائلة^(٢) فلم يأخذني النوم. فنهضت وأمرت ببغلة لي فأسرجت وأحضرت فركبتها فلما خرجت من المنزل استقبلني وكيل لي ومعه مال. فقلت: ما هذا؟ فقال: ألفا درهم جيبته من مستغلك^(٣) الجديد. قلت: أمسكها معك واتبعني. فأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر ثم مضيت في شارع دار الرقيق. حتى انتهيت إلى الصحراء، ثم رجعت إلى باب الأنبار وانتهيت إلى باب نظيف عليه شجرة، وعلى الباب خادم فعطشت فقلت للخادم أعندك ماء تسقيني؟ قال: نعم. ثم دخل وأحضر قلة^(٤) نظيفة طيبة الرائحة، عليها منديل فناولني فشربت، وحضر وقت العصر فدخلت مسجداً على الباب فصليت فيه، فلما قضيت صلاتي إذا أنا بأعمى يلتمس، فقلت: ما تريد يا هذا؟ قال: إياك أريد. قلت: فما حاجتك؟ فجاء حتى جلس إلى جانبي وقال: شممت منك رائحة طيبة، فظننت أنك من أهل النعيم، فأردت أن أحدثك بشيء، فقلت: قل: قال: ألا ترى إلى باب هذا القصر؟ قلت: نعم. قال: هذا قصر كان لأبي فباعه وخرج إلى خراسان، وخرجت معه. فزالت عنا النعم التي كنا فيها، وعميت فقدمت هذه المدينة فأتيته صاحب هذه الدار لأسأله شيئاً يصلني به، وأتوصل إلى سوار فإنه كان صديقاً لأبي. فقلت: ومن أبوك؟ قال فلان بن فلان فعرفته، فإذا هو كان من أصدق الناس إليّ. فقلت له: يا هذا إن الله تعالى قد أتاك بسوار، منعه من الطعام والنوم والقرار، حتى جاء به فأقعده بين يديك. ثم دعوت الركيل فأخذت الدراهم منه فدفعتهما إليه وقلت له: إذا كان الغد فسر إلى منزلي. ثم مضيت وقلت: ما أحدث أمير المؤمنين بشيء أظرف من هذا فأتيته، فاستأذنت عليه، فأذن لي

(١) مئة: فضل وإحسان.

(٢) القائلة: القيلولة ظهراً.

(٣) مستغلك: المستثمر.

(٤) قلة: جرة.

فلما دخلت عليه حدثته لما جرى لي فأعجبه ذلك، وأمر لي بألفي دينار فأحضرت. فقال: ادفعها إلى الأعمى. فنهضت لأقوم، فقال: اجلس، فجلست. فقال: أعليك دين؟ قلت: نعم. قال: كم دينك؟ قلت خمسون ألفاً. فحادثني ساعة وقال: امض إلى منزلك، فمضيت إلى منزلي فإذا بخادم معه خمسون ألفاً. وقال: يقول لك أمير المؤمنين اقض بها دينك. قال: فقبضت من ذلك فلما كان من الغد أبطأ عليّ الأعمى، وأتاني رسول المهدي يدعوني فجئته فقال قد فكرت البارحة في أمرك. فقلت يقضي دينه، ثم يحتاج إلى القرض أيضاً؛ وقد أمرت لك بخمسين ألفاً أخرى. قال: فقبضتها وانصرفت فجاءني الأعمى فدفعت إليه الألفي دينار وقلت له: قد رزقك الله تعالى بكرمه وكافأك على إحسان أبيك، وكافأني على إسداء المعروف إليك، ثم أعطيته شيئاً آخر من مالي فأخذه وانصرف. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومما هو أوضح حسناً وأرجح معنى، ما حكاه القاضي يحيى بن أكرم رحمة الله تعالى عليه قال: دخلت يوماً على الخليفة هارون الرشيد ولد المهدي وهو مطروق مفكر فقال لي: أتعرف قائل هذا البيت:

والخيرُ أبقى وإن طالَ الزمانُ بهِ والشرُّ أنجبتُ ما أوعيتَ من زادِ

فقلت: يا أمير المؤمنين إن لهذا البيت شأنًا مع عبيد بن الأبرص فقال: عليّ بعبيد. فلما حضر بين يديه قال له: أخبرني عن قضية هذا البيت. فقال: يا أمير المؤمنين، كنت في بعض السنين حاجاً فلما توسطت البادية في يوم شديد الحر سمعت ضجة عظيمة في القافلة ألحقت أولها بآخرها. فسألت عن القصة فقال لي رجل من القوم: تقدم ترَ ما بالناس. فتقدمت إلى أول القافلة، فإذا أنا بشجاع أسود فاغر فاه كالجدع، وهو يخور كما يخور الثور، ويرغو كرهاء البعير، فهالني أمره وبقيت لا أهتدي إلى ما أصنع في أمره، فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى، فعارضنا ثانياً فعلمت أنه لسبب، ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه، فقلت: أفندي هذا العالم بنفسي، وأتقرب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة من هذا. فأخذت قربة من الماء فتقلدتها وسللت سيفي وتقدمت، فلما رأني قربت منه سكن، وبقيت متوقفاً منه وثبة يبتلعني فيها. فلما رأى القربة فتح فاه فجعلت فم القربة في فيه، وصببت الماء كما يصب في الإناء فلما فرغت القربة تسبب في الرمل، ومضى فتعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا به. ومضينا لحجنا ثم عدنا في طريقنا ذلك. وحططنا في منزلنا ذلك في ليلة مظلمة مدلهمة، فأخذت شيئاً من الماء وعدت إلى ناحية عن الطريق فقبضت حاجتي، ثم توضأت وصليت وجلست أذكر الله تعالى فأخذتني عيني، فتمت مكاني فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حساً وقد ارتحلوا وبقيت منفرداً لم أر أحداً ولم أهتد إلى ما أفعله، وأخذتني الحيرة وجعلت أضطرب، وإذا بصوت هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول:

يا أيها الشخصُ المضلُّ مركبُ ما عنده من ذي رشادٍ يصحُّبه
دونك هذا البكرَ منا تركبُ وبكرُ الميمونِ حقاً تجنُّبه
حتى إذا ما الليلُ زالَ غيبهُ عند الصباح في الفلا تسيئه

فنظرت فإذا أنا ببكر قائم عندي، وبكري إلى جانبي فأنخته وركبته وجنبت بكري فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لي القافلة، وانفجر الفجر ووقف الكبر، فعلمت أنه قد حان نزولي بتحولي إلى بكري وقلت:

يا أيها البكرُ قد أنجيتَ من كربٍ ومن همومٍ تضلُّ المدلجَ الهادي

ألا تخبرني بالله خالقنا
وارجع حميداً فقد أبلغتنا متناً
فالتفت بالبكر إليّ وهو يقول:
أنا الشجاع الذي ألفتني رمضاً
فجذت بالماء لما ضنّ حامله
فالخير أبقي وإن طال الزمان به
هذا جزاؤك مني لا أمنّ به
من ذا الذي جادّ بالمعروف في الوادي
بوركت من ذي سنام رائج غادي
والله يكشف ضرّ الحائر الصادي
تكرمّا منك لم تمنن بأنكاد
والشرّ أحبّ ما أوعيت من زاد
فاذهب حميداً رعاك الخالق الهادي

فعجب الرشيد من قوله، وأمر بالقصة والأبيات فكتبت عنه، وقال لا يضيع المعروف أين وضع. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

تم بعونه تعالى الجزء الأول من كتاب المستطرف
ويليه الجزء الثاني وأوله الباب الثالث والأربعون